أدب الشام الحديث

للسيدة وداد سكاكيني

منذ القدم اقتسمت بلاد العرب أدبها الأصيل ، فكان لكل قطر شعراؤه وأدباؤه . وكان الشعر في آثار العرب الثقافية أول ما جاد به دهرهم وأطل من آفاقهم ، فكان في الجاهلية موزعا بين قبائل وعشائر لكل منها شاعرها الذي يحمي ذمارها ويروي أخبارها ، وكان لنجد شعراؤها كما كان للحجاز أندادهم من أهل القرائح والبيان . بيد أن الأدب الذي انتهى إلينا منهم والشعر الذي أثر عنهم لم يكن بتلك القسمة في عهود الجاهلية متميزاً بعضه من بعض ، إذ كان نسيج القصائد في تلك الفترات متشابها ، ولم يستطع دراس الأدب من قدامى ومحدثين أن يكتنهوا الفروق بين أولئك الشعراء ، فالجزالة والفحولة حتى في شعر النساء كانت شركة بينهم ، وسلامة الطبع والجبلة موهبة فيهم ، والسذاجة والبعد عن التكلف من سجاياهم ، أما الفروق الفنية فقد بدت في الشعر والنثر بعد الإسلام ، فكان شعراء أمية السياسية في طبيعة قصائدهم غير شعراء الحجاز الغزل . وقضى الأمر في قسمة الأدب بين البلاد العربية في العصور العباسية ، فظهرت الميزات والعلامات بمياسم أكثر انطباعا وأشد وضوحا ، فاذا للعراق أدب فياض شاعت في مجاليه مطارحة الندامى وأغاني القيان ومجون الشاربين ، وإذا للأندلس طائفة من الشعراء انسرح خيالهم ، ورق شعورهم ، فابتدعوا الموشحات والمقطوعات ، وخلعوا على أدب العرب وشاحا هفهافا ، وفي نسمات الوادي الكبير ، أطلقوا في ثناياه أعنة الخيال من روح الأدب الغربي الذي رف عليهم ومن صوب الإسبان أو عبر نحوهم من جبال (البرنيه) .

وكان ثمة شعر مطبوع وأدب بهيج الألوان ، نجما في آفاق الشام ، وقد تنتهما دارات غسان ورعتهما ضفاف بردى ، ورفت بهما أفانين (جلق) بغوطتها الخضراء كيوم العصابة التي درّ درها ونادمها حسان في الزمان الأول ، فقد عرفت الشام بلون من الشعر سماه المعاصرون من عرب ومستشرقين بالطريقة الشامية ، وهو ضرب من البيان ظهر في آثار أبي تمام والبحتري وأبي العلاء فيه اللفظ البليغ والصناعات ذوات التحاسين ، حتى بات شعر الشام ، كعصب اليمن ، أفوافه مزركشة ومطارفه منمنمة ، فكأنه نمارق على أرض أو ديباجة على جدار

وإني إذ أرسم صورة لأدب الشام ، لا أقول بالاقليمية العصبية ولا أغلو في الرأي والتصوير ، وإنما أقصد إلى تلك المزايا التي اختص الله بها كل بلد من الأرض ، فجعل فيها البيئة ذات خلق وتكوين ، تؤثر في سكانها وتطبع المرء بمزاجها ، فتجعله حسب أطوارها ومقتضاها

«إننا على ظهر سفينة هائلة كالتنين الضخم ، وقد اقتلعت الأمواج العاتية دفة هذه السفينة ، وحطمت الرياح الثائرة ساريتها . فالسفينة الآن ضالة في المحيط ، تتخبط ذات اليمين وذات الشمال ، مثلها مثل الأرض السابحة في الفراغ ! وهي تسير بالمصادفة والاتفاق وتضرب ضرب عشواء ، مدفوعة بالرياح السوافي ، كأنما هي حطام هائل يحمل فوق ظهره الناس ... وقد تصل هذه السفينة إلى هدف مجهول ، أو غاية غير معلومة ، فتبلغ الإنسانية غرضا لم ترم إليه من تلقاء نفسها . ولكن ليس ثمة يد تقودنا ، ولا عين ترعانا ؛ والدفة قد تحطمت منذ زمن بعيد ، بل لعلها لم توجد يوما ما ، فعلينا أن نصنع هذه « الدفة » ؛ وتلك مهمة خطيرة ، ولكنها عملنا ، ومن واجبنا أن نقوم بهذا العمل » .

نحن إذن في دور اضطراب وصراع ، فلابدّ لنا إذن من أن نفكر بحرية في الطريقة التي نخلُص بها من هذه الفوضى . والحرية التي يدعو إليها جويّو ليس معناها الفوضى ، وإنما هي حرية تنطلق معها النفوس من نير العبودية ، كما انطلقت الأجسام من نير الرق القديم . العالم — اليوم — يتحرّق شوقا لهذه الحرية ، فقد ظل الفكر أمداً طويلا حبيس الأنفاس ، لا يُفكّ إساره إلا بالقدر الذي يهيء له أن يسير بضع خطوات في حظيرة الإيمان الضيق ! ولكننا نريد أن ينطلق الفكر كما يشاء ، حرًّا لا تقيده سلطة ، ولا تردّه قوّة ، اللهمّ إلاّ سلطة المنطق ، وقوة المعقول !

(السويس) زكريا ابراهيم

من خطرات هذا الرأي ما صوره الشاعر ألفريد دوموسيه ، فان له رواية سماها « الكاس والشفاه » وصف فيها رجلا من سكان التيرول يقول الشعر ويروي سيرته ، فيمر به الشاعر بعد بعض أولئك الأشداء الذين سكنوا في الأرض القاسية ، فعلوا ثم الجبال على سهوات خيولهم ، ولم تتطامن أخلاقهم كأولئك الذين سهلوا إذ سكنوا في السهول

وما ينكر المنصف أن الأدب كالخلوق الحي ينمو ويصح ويسري في أعراقه دماء تطب العارفون فيها الأصالة والنشأة التي تخضع لمشارع ثقافية وأحداث اجتماعية وسياسية

فأدب الشام الحديث هو من عهد القبيل أدب عربي الوجه والروح وقد صقله الفن والتطور وظهرت عليه مغارس الوطن ، ولم يولد هذا الأدب ولادة ارتجال ، وإنما فتحت الشام العيون بعد الحرب العالمية على حركة فكرية جديدة ويقظة ثقافية بلغها شذاها من ضفاف النيل فودت لو أتاح لها العصر مسرحا مثيلا ، وكانت مثل سجين لم يجد أرفه لنفسه وأقرب إلى قلبه من أدب المصريين فتأثرت الشام بهضتهم ومضت على غرارهم في نشأتها الحديثة . وكما راجت فيها سوق الأدب تقصيدا فلها شوق أو حافظ ، ولكتاب ألفه المنفلوطي أو الرافعي ، وكان في تلك الآونة نفر من الشاميين متنورين لكل نهضة . بعضهم عرف الغرب وورد مصر وورود النحل على الأزاهير ، ثم صدر عنها فعاد إلى الشام ينشيء المجلات ويبشر الصحف ويحاضر في المجامع والندوات داعيا إلى نشر الثقافة والأدب . وأسس المجمع العلمي العربي في دمشق على الفصحى وحفاظ أمجادها وذخائرها فجمع بين لغوي مدقق وعالم فيلسوف ومؤرخ محقق وشاعر أديب ، ورفدت أعماله مجلة ذاعت في أقطار العرب . وكان من السوريين شعراء قد استيقظوا بعد الحرب الغابرة على صيحات البعث والتحرر والتجديد فأخذوا بشيء من القصيد كأنه الينبوع يفيض حينا وينضب حينا ، وفيهم من حذا حذو جرير والأخطل حتى قلدهما في حلية التقريض ، ومنهم من أدمن الإلمام بالمتنبي حتى سرى في بيانه روح أبي الطيب وعنجهيته . وكما كان في كل بلد أدب للشيوخ وأدب للشباب فكذلك حدث في أدب الشام ، وليس بين الفريقين تنابذ وجفاء ، فالشيوخ رسخ مجهودهم في اللغة والعلم والبحث ، والكهول والفتيان امتلأت نفوسهم بالأمل والطموح ، واكتسبوا بالتحصيل ما بذوا به الأوائل ، فقد جمع بعضهم بين الثقافتين العربية والغربية ، فانبعثوا وراء المثل العليا يسترشدون بالهداة ويتأثرون أعلام هذه النهضة التي نشروها من قريب ومن بعيد

وان في أدب الشام الحديث لألوانا وفنونا ، ففي الكتابة والإنشاء قريض لو أتيح لهم ذوو نشر وطباعة بين بأيديهم فتدعها في الناس ، أو لو كانت صحفهم تجاوز آفاقهم ، لشاع صيتهم ، وفي هذا مثلا مواهب قيمة في النقد والقصص ، لولا إيثار أصحابها لوظائف الدولة لأثر عنهم كل أثر نفيس

إنه لأدب طريف الألوان أصيل السمات ، ولكنه ضئيل الحرم ، محلى الشيوع ، متيد الخطوات . وفي مصر أدب جبار قيضت له أسباب الإنتشار والإزدهار ، والشام سوق لهذا الأدب المصري بأكثر مما هي فيه لأهلها ، فلو سئل المثقف أو المتعلم في ديار الشام عن مصر وأدبائها وكتبها وعلمائها ، لأجاب بما يعجب ويما يطرب ، إذ أن أدب مصر يعيش في تلك الديار منذ ثلاثين عاما كما يعيش في حمى الأزهر وتحت قبة الجامعة ، وفي ندوات الثقافة المصرية ، غير أن مصر التي يجمل بها عتاب الحبيب لا تعرف من أدب الشام إلا القليل ، وكلتا الشقيقتين على حق فيما ترى بهذا الشأن .

ولعلي أتحدث قريبا عن فنون هذا الأدب مزودا بذكر أعلامه وكتابه وأهل القصة والنقد فيه

وزار سكاكيني

ظهر كتاب

الفاروق عمر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

ثمن النسخة ٤٠٠ ربعمائة مليم

وللبريد ٨٣ مليم

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا — القاهرة

ت ٥١٣٩٤